

النقد الأدبي

للحياة ..

بفهم عبد المحسن الخبير

من الاجيال القديمة وغير ذلك تجعل من وجود الناقد الواعي ضرورة من الضرورات التي لا يمكن للدب وللحياة العقلية الاستغناء عنها . . ولعلنا لا نبالغ اذا ارجعنا بعض اشكال التأخر في حياتنا الادبية الى عدم وجود ناقد ادبي من ذلك النوع .

والملاحظ انه حيثما يوجد ادب يستوعب طموح الشعب ويساهم في نوعيته ويصور الامه واماله ويرسم له طريق مستقبله ويزين له الحياة ويقوي عراده بها يوجد ناقد على طرازه في سعة المعرفة وشمول التجارب يقرب مفاهيمه الى قرائه ويسر لهم اكتشاف جوانبه الفنية الخالصة والجوانب التي تعمق معرفتهم بالحياة والناس والكون .

وعلى نحو ما تعددت مدارس الادب واختلفت مذاهبه وتنوعت صيغته ومضموناته ظهرت في مجال النقد مذاهب شتى تلتقي وتختلف في فهمها للدب وفي موقفها منه وفي تحميله اعباء من نوع ما ازاء الحياة والناس الذي يظهر بينهم . . وليس بينها اخرى بالتقدير في الاتجاه الذي يعتبر النقد مجالا عقليا قائما بذاته . . مستتقل الشخصية واللامح وله اعتباره الخاص ووظيفته الهامة بالنسبة الى الادب والى المعرفة والى حياة البلاد الفكرية باجماعها .

وبالنسبة الى ظروفنا فان النقد يواجه عددا من المشاكل التي لا تبدو مواجهتها سهلة خصوصا وان النقد الادبي بمعناه الاصطلاحي لا وجود له في ادبنا . . ولا يظهر من سياق حياتنا الادبية الحاضرة ان مثل هذا الفن على وشك الظهور في الوقت القريب .

وبالنظر الى ان النقد الادبي قد ظفر في مصر ولبنان بعدد من الكتاب ذوي الخبرة والاختصاص بالنقد فانه من الحق ان يتوضح لنا ، بحكم اتصال اكثرنا باتار هؤلاء موقف النقد من الادب الذي يمارسه ادباؤنا ومن مدارس الادب المعروفة ، ومدى تقبله بنظرية الادب الفني البحت او الادب الذي يحدد نفسه لخدمة قضايا الانسان اليومية وحياته الاجتماعية .

والشيء الذي لا نحب ان نغفله هنا هو ما تتعرض اليه اكثر فنون الادب اليوم من ضعف في الصياغة وضعف في القيمة الفنية بسبب من التوسع في فهم نظرية الادب للحياة . . وكان ذلك على الاغلب نتيجة استغلال بعض العناصر الغريبة على الادب لهذا المفهوم وللظروف

تاريخ الادب في العراق منذ اول هذا القرن حتى اليوم بحاجة الى تفسير معمق يربط بين تخلف الادب في مضمونه وشكله وبين تخلف حياتنا العامة في مجالاتها المتعددة . . ولا ريب في وجود علاقة وثيقة بين الادب والحياة . . ولا نعني هنا ما يعنيه القائلون بوجوب رصد الادب نفسه في سبيل الحياة والكفاح ضد الافات المصطنعة التي تعيق انطلاق الشعب نحو مستقبله وحرية وكرامته وهو ما يطلق عليه (الادب للحياة) وانما نعني بالحياة بكونها ظرفا زمانيا ومكانيا ينشأ فيها الادب وتختلف عليه ما تختلف على الحياة نفسها من تيارات وظروف تحوله من حال الى حال ومن صفة الى صفة تناقضها او تتشابه معها في بعض الوجوه .

وباعتبار ان الادب نشاط اجتماعي صرف مهما اختلفت بعض ابوابه في التعبير عن ذات الاديبي الوجدانية والانفعالية فانه خاضع لما تخضع له الحياة التي يعاصرها من حوافز التطور والتخلف ودواعي الابداع والركود .

ومن هنا فان كل بحث في الادب العراقي الحديث وتطوره وانتكاسه لا يربط بينه وبين حياتنا العامة وحقيقة الظروف الداخلية والخارجية والتاريخية التي اعطتها شكلها ومظاهرها لا يمكن ان يكون بحثا جديا في بابه .

ونحن اذ نؤكد على ارتباط الادب بالحياة على هذا النحو فما ذلك الا لاعتقادنا بان الادب ظاهرة من ظواهر الحياة الاجتماعية يعود وجوده على وجود عدد من البواعث المتصلة باحساس الشعب ووجدانه ، كما ان دراسته من خلال علاقاته بالحياة واستمداده طموحه منها يستوجب ناقدا يتوفر فيه الاحساس الفني المشبع بالوعي والادراك لاكتشاف علائق الادب العضوية بالحياة وتمثله لحاجاتها واستجابته التلقائية لثلاثها واشواقها . . وبالتالي تحميل الحياة ذاتها قدرا من تبعة تخلف الادب في العراق الذي لا ريب فيه .

ومن ثمة تدرك اهمية الناقد الادبي في حياتنا الادبية . وليس عمل الناقد الادبي ، في حقيقته ، مقتصورا في تفسيره لتاريخ الادب وتلمسه علاقاته بالحياة ونحوها فقط بل ليس عمله في هذا الباب هو احسن ما ينتظر منه . . . اذ ان مهمة الناقد بالنسبة الى واقع ادبنا في الوقت الحاضر ورصد نشاطه وتسجيل تياراته ومظاهره ودرس تأثيره بالاداب الانسانية المعاصرة له والاداب التي ورثناها

الاجتماعية او السياسية التي تتطلبه في بعض الحالات . . مما ادى الى التضحية بالمظهر الفني للادب بحجة التعبير المباشر عن الحياة السياسية والاجتماعية للشعب . . . وكانت بواعت اكثرهم لا صلة لها لا بالناس ولا بالحياة ولا بالفن الادبي على الاطلاق .

وبالقياس الى حياتنا بعد الثورة فان الادب مدعو الى الوقوف بجانب الانسان في العراق يوضح له طريقه في المعتك الذي يخوضه ضد عدد من القوى العدوانية التي ترفع عقيرتها اليوم للدفاع عن المفاهيم الرجعية خدمة للاستعمار وعملائه . . ولا بد ان النقد في مثل هذه الحال يقيس نجاح العمل الادبي بتوفر العناصر الانسانية والشعبية فيه ولكن هذا لا ينبغي ان يفلنا عن المقومات الاساسية في كل عمل ادبي وهي قدرته على الانفعال بموضوعاته وعرضها عرضا احيائيا صرفا .

ليس من غرضنا في هذه السطور ان نعرض الافاق التي يعيش فيها النقد الادبي المعاصر وعدد مدارسه واخضاعه على يد بعض اعلامه الى توجهات فلسفية ومعيمات اخرى نجدها في الكتب النقدية التي تترجم من الادب الاجنبية الامريكية والانكليزية وغيرهما . . . اذ ان حظ هذه الكتب من الحذقة والتمحل اكثر مما تستطيع ان توفره للقارئ والدارس من وسائل فهم الادب ونقده . . ان حركة النقد الادبي بحد ذاتها حركة ضرورية تستلزمها بالدرجة الاولى علاقة القراء بالادب وطبيعة هذه العلاقة التي تتباين بين قارئ وقارئ على حسب كفاءة كل منهما لاستيعاب العمل الادبي والتجاوب معه والانفعال به . . ونحن نعلم انه لا يمكن توحيد موقف الناس من العمل الادبي بسبب من طبيعته الوجدانية وخصائصه الذوقية . . . وقد نشأ النقد الادبي لاعطاء الحكم عليه بعض المبررات من وجهة نظر الناقد نفسه . . وعلى الرغم من ان هذه المبررات ظلت، هي الاخرى، موضع اختلاف بين قراء الادب لاعتمادها اعتمادا اساسيا على الذوق وعلى الحاسة الفنية والخبرة العاطفية فانها ايضا وفي حدود معينة ساعدت على تهذيب الاحكام الادبية وانتشالها من ملابس الهوى والاغراض الشخصية غير الفنية . ولكن تطور الحياة الانسانية البالغ في هذا لعصر وتغير الاتجاهات والميادين الادبية ووسائل التعبير الفني دفع النقد الادبي الى العمل لجعل نفسه علما او منهجا له اصوله وقواعده وتقنياته الخاصة به . . وقد افسد هذا التطور ، المبالغ به ، طبيعته . . اذ بينما كان مرجعا لفهم الاعمال الادبية اصبح هو بحاجة الى مرجع لفهمه . . وقد شهدنا كثيرا من السخف المحمول اعتباطا على النقد . . ولكن هذا لم يمنع فئات اخرى من ممارسة النقد في مجاله الخاص الذي يحاول تيسير فهم العمل الادبي ومساعدة القارئ على استيعاب خصائص الذاتية الفنية .

اما بالنسبة لنا فاننا ننتظر من النقد عملا اساسيا يفرضه عليه واقع الادب في العراق في الفترة القائمة

وواقع حياتنا الاجتماعية والسياسية والفكرية بوجه عام . . واذا استبعدنا من نطاق عملنا التطورات الاخيرة في النقد التي احوته الى موضوع فلسفي او قريب من الفلسفة فاننا نتوقع منه عملا توجيهيا صرفا . . لتشجيع الادب الذي يتناول من خلال ذاتيته الانفعالية قضايا مجتمعنا ومشاكله الوثيقة العلاقة بحياة الانسان المعاصر في العراق ومستقبله . . وان كل عمل ادبي من هذا النوع واجب الرعاية من قبل الناقد قبل كل شيء . . ويكون عمل الناقد ازاءه ان يشرح خصائصه وطريقه فهمه لموضوعه ومدى ما يضيفه الى خبرة الانسان العراقي في طريق الكفاح ضد العدوان والاستعمار والرجعية وفي طريق استعلائه على نفسه .

ان طريقنا اليوم وبخاصة بعد الثورة حافل بالفرائب والبدوات التي يضيق بها الحصر . . بعضها طبيعي تستوجه ظروف التحول من نظام الى نظام وبعضها مصطنع تفرضه علينا قوى عدوانية لاتستحسن اخراجنا من الاطار التقليدي الخانع الذي كنا فيه . . وفي هذه الحالة يتعين على الادب بصورة خاصة وبدون اللجوء الى التضحية لعناصره الفنية ان يرصد خلائق الشعب المبدعة وفطرته السليمة ليحثها على الاستمرار في الكفاح في سبيل انسانية تامة وحرية بناءة وثقة بالحياة وبالمستقبل وبالظفر .

وفي الوقت نفسه يتعين على الناقد الحرص على المفهوم الاجتماعي للادب بتسديد خطواته ، والحدب عليه، واعطائه قدرا من اهتمامه يفوق ما يعطيه لسواه من المفاهيم الادبية . . كما يتعين عليه في مجال الحكم على العمل الادبي ووصف علاقته بالحياة وتقدير قيمه الفنية او توضيح تخلفه في هذه المجالات ان يحاول ربطه بمظاهر التخلف الواقعة في حياتنا العامة ذاتها . . اذ لاشك في ان الادب - باعتباره ظاهرة اجتماعية - يتأثر بما تتأثر به الحياة في العوامل الطبيعية والخارجية ، وان ارتقاءه مرهون حتما بارتقاء مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية على الخصوص .

عبد المحسن الحكيم

بغداد

كتابان خطيران

لجان بول سارتر

عارنا في الجزائر

لهنري بيغ

الجلادون

ترجمة عابدة وسهيل ادريس

دار الاداب